انقسام أمريكا الجنوبية حول فلسطين بين اليسار واليمين: قراءة في تحولات الموقف في دول القارة

د. راسم بشارات – دكتوراه في دراسات غرب آسيا ومختص في الشأن اللاتيني

منذ سبعينيات القرن الماضي، بدأت ملامح الموقف في أمريكا الجنوبية من القضية الفلسطينية تتشكل في ظل تحولات عالمية عميقة. فبعد أزمة النفط عام 1973، حين قررت السعودية وقف إمداداتها للغرب عقب اندلاع حرب أكتوبر بين مصر وسوريا من جهة وإسرائيل من جهة أخرى، وجدت دول أمريكا الجنوبية نفسها أمام واقع جديد أعاد تعريف علاقاتها بالعالم العربي وبالقضية الفلسطينية تحديدا.

ففي تلك المرحلة، انحازت غالبية عواصم القارة، ولو بشكل رمزي، إلى الموقف العربي في المحافل الدولية، وسمحت بفتح مكاتب لمنظمة التحرير الفلسطينية ضمن بعثات جامعة الدول العربية، في خطوة حملت أبعادا سياسية أكثر مما كانت دبلوماسية.

لكن هذا الموقف اكتسب زخما غير مسبوق مع مطلع الألفية الجديدة، حين اجتاحت القارة ما عرف بـ"المد الوردي"، صعود حكومات يسارية من فنزويلا إلى البرازيل وبوليفيا والأرجنتين وتشيلي، رفعت شعارات مناهضة للاستعمار وللهيمنة الأمريكية.

في ظل هذه التحولات، لم تعد فلسطين مجرد قضية تضامن خارجي، بل تحولت إلى مرآة تعكس هوية اليسار الجديد في نضاله ضد الإمبريالية، وإلى رمز للعدالة في خطاب سياسي يسعى لإعادة تعريف علاقة الجنوب بالغرب.

كانت تلك السنوات بمثابة ذروة التضامن اللاتيني مع فلسطين؛ حيث تبنت حكومات يسارية كبرى مواقف أكثر حزما في دعم الحقوق الفلسطينية، رأت فيها امتدادا طبيعيا لمعركة القارة التاريخية ضد التبعية الاقتصادية والسياسية للولايات المتحدة وحلفائها.

إلا أن هذا المشهد بدأ يتبدل تدريجيا مع نهاية العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، حين استعادت التيارات اليمينية الشعبوية زمام المبادرة في عدد من العواصم الكبرى.

ومع هذا التحول، انقسمت الخريطة السياسية اللاتينية بوضوح بين رمزين متقابلين؛ فلسطين، التي ظلت في الخطاب اليساري عنوانا للمقاومة والعدالة الاجتماعية. وإسرائيل، التي تبناها اليمين نموذجا للأمن والتطور والانتماء إلى "العالم الغربي".

اليسار اللاتيني: فلسطين كقضية تحرر أممية

لم يكن اصطفاف اليسار اللاتيني إلى جانب فلسطين مجرد تعاطف سياسي عابر، بل امتدادا عميقا لجذور فكرية وأيديولوجية تعود إلى إرث القارة في مقاومة الاستعمار.

من هوغو تشافيز في فنزويلا إلى لولا دا سيلفا وديلما روسيف في البرازيل، ومن نيستور وكريستينا كيرشنر في الأرجنتين إلى إيفو موراليس في بوليفيا وميشيل باشليه في تشيلي، تبنت موجة "اليسار الوردي" القضية الفلسطينية باعتبارها رمزا للعدالة الدولية وامتدادا طبيعيا لخطابها المناهض للهيمنة الأمريكية والإسرائيلية. في هذا السياق، لعب منتدى ساو باولو، الذي أسسه الرئيس الكوبي فيدل كاسترو وزعيم حزب العمال البرازيلي لولا دا سيلفا عام 1990 عقب انهيار الاتحاد السوفياتي، دورا محوريا في توجيه الاصطفاف السياسي والفكري لأمريكا الجنوبية والوسطى نحو فلسطين.

فالمنتدى، الذي يضم أكثر من مائة حزب وحركة يسارية من 27 دولة، شكل منصة فكرية وتنظيمية لتوحيد الخطاب المناهض للإمبريالية والهيمنة الغربية، وجعل من دعم الشعوب الواقعة تحت الاحتلال جزءا من هوية اليسار اللاتيني. ومن هذا المنطلق، أصبحت فلسطين قضية رمزية مركزية في أجندة المنتدى، تجسد التزامه التاريخي بالعدالة والتحرر.

وقد انعكس هذا التوجه الفكري على السياسات الفعلية التي انتهجتها حكومات انبثقت عن أحزاب المنتدى، من البرازيل والأرجنتين إلى تشيلي وبوليفيا وفنزويلا، حيث تبنت مواقف حازمة ضد الاحتلال الإسرائيلي ورفعت القضية الفلسطينية إلى المحافل الدولية.

وهكذا، لم يعد دعم فلسطين مجرد موقف إنساني، بل تحول إلى رؤية وتعبير سياسي منسجم مع هوية اليسار القاري المناهضة للهيمنة، والتي ترى في النضال الفلسطيني امتدادا لمعركة أمريكا اللاتينية الطويلة من أجل الاستقلال والسيادة، وأطلق عليها عدد من مفكري اليسار اللاتيني برأس الحربة في مواجهة الإمبريالية والصهيونية. تقوم الرؤية اليسارية على ثلاثة مرتكزات رئيسية:

الأول: الإرث المناهض للاستعمار: يرى اليسار في الاحتلال الإسرائيلي نموذجا حيا للهيمنة الإمبريالية، تماما كما عانت شعوب أمريكا اللاتينية من الاستعمار الأوروبي والتبعية الاقتصادية للغرب.

الثاني: التحالف مع محور الجنوب العالمي: على مدار العقدين الماضيين، عمقت حكومات اليسار تحالفاتها مع قوى مثل إيران وروسيا والصين، وكلها أطراف تنتقد إسرائيل وتدعم فلسطين سياسيا ودبلوماسيا.

الثالث: القاعدة الشعبية اليسارية: يعتمد اليسار اللاتيني على دعم النقابات والحركات الطلابية والمنظمات الشعبية والكنائس التقدمية التي ترى في فلسطين رمز كفاحي واجتماعي يعبر عن نضال الشعوب ضد الظلم العالمي.

وقد ترجِمت هذه المواقف إلى خطوات ملموسة؛ ففي بوليفيا تم قطع العلاقات مع إسرائيل مرتين (عامي 2009 و2023)، فيما وصف نيكولاس مادورو إسرائيل بأنها دولة استعمارية تمارس الإبادة، أما لولا دا سيلفا ففجر أزمة دبلوماسية مع إسرائيل حين صرح بأن ما تفعله إسرائيل في غزة أسوأ مما فعله هتلر باليهود.

اليمين اللاتيني: إسرائيل كحليف للغرب والحداثة

على الجانب الآخر، تبنى اليمين اللاتيني مواقف داعمة لإسرائيل بدرجات متفاوتة، مستندا إلى دوافع دينية وأمنية واقتصادية.

ومع صعود قيادات يمينية مثل جايير بولسونارو في البرازيل، موريسيو ماكري في الأرجنتين، وسيباستيان بينييرا في تشيلي، أعادت هذه الحكومات رسم السياسة الخارجية على أسس جديدة أقرب إلى واشنطن وتل أبيب.

تحالف اليمين في القارة مع إسرائيل لم يكن عفويا، بل جاء نتاج أربع ركائز رئيسية:

الأولى: التحالف مع الغرب والولايات المتحدة: يرى اليمين اللاتيني نفسه امتدادا للغرب الليبرالي، ويعتبر الانفتاح على إسرائيل جزءا من الانضمام إلى "المعسكر الديمقراطي" الذي تقوده واشنطن. يتجلى هذا بوضوح في البرازيل، حين وصف بولسونارو إسرائيل بأنها نموذج للأمن والتنمية، وقرر نقل سفارة بلاده إلى القدس في خطوة رمزية ذات بعد أيديولوجي.

الثانية: التأثير الإنجيلي – الديني: في دول مثل البرازيل، أسهم صعود الكنائس الإنجيلية البروتستانتية في ترسيخ الصهيونية المسيحية (الإنجيليون الجدد) التي تعتبر دعم إسرائيل واجبا دينيا.

الثالثة: البراغماتية الاقتصادية والتكنولوجية: تمثل إسرائيل شريكا مغريا في مجالات التكنولوجيا الزراعية، الأمن السيبراني، والطاقة المتجددة، وهي قطاعات محورية في أجندة الحكومات النيوليبرالية.

الرابعة: سردية الأمن العالمي وشيطنة اليسار: يعتمد اليمين على خطاب مستورد من الإعلام الأمريكي المحافظ، يصور القضية الفلسطينية ضمن إطار مكافحة الإرهاب الإسلامي، ما يجعل إسرائيل تقدم نفسها كحليف في مواجهة التطرف.

في المحصلة، يتبين أن ما يتبدل في أمريكا الجنوبية ليس وجدان الشعوب، بل مزاج السلطة وتوازنات الحكم. فالتعاطف الشعبي مع الفلسطينيين يظل ثابتا ومتجذرا في الذاكرة الجماعية لشعوب القارة، التي ترى في التجربة الفلسطينية مرآة لتاريخها الطويل مع الاستعمار والقمع. وهذا التأييد الشعبي يظهر بوضوح في دول مثل تشيلي، حيث أكبر جالية فلسطينية خارج العالم العربي. وفي البرازيل والأرجنتين، حيث ترى الغالبية إسرائيل قوة احتلال حتى في ظل حكومات يمينية.

لكن هذا الإجماع الشعبي لا يجد دائما طريقه إلى السياسات الرسمية، لأن السلطة هي المتغير الحاسم. فعندما يحكم اليسار، تعود فلسطين إلى صدارة الخطاب الدبلوماسي باعتبارها رمزا للنضال ضد الإمبريالية، كما فعل موراليس ولولا ومادورو وكيرشنر. وتتحرك الحكومات اليسارية لتقديم دعم سياسي واضح في المحافل الدولية، وتدافع عن الحقوق الفلسطينية بوصفها امتدادا لمشروعها الأخلاقي والتاريخي.

وعندما يصعد اليمين، يتغير الاتجاه سريعا. إذ تعطي الحكومات اليمينية الأولوية للتحالف مع واشنطن وتل أبيب باعتبارهما شريكين محتملين في الاستثمار والأمن والتنمية، فتتراجع فلسطين إلى الهامش، أو تختفي من جدول الأعمال، وأحيانا تتخذ مواقف مؤيدة لإسرائيل بشكل صريح كما حدث في عهد بولسونارو وميلي وبينيرا.

بهذا يصبح موقع فلسطين في أمريكا الجنوبية رهينة الدورة الانتخابية؛ مع اليسار ترتفع نبرة الدعم، بينما مع اليمين تتراجع لصالح حسابات استراتيجية واقتصادية. لكن الأهم أن هذا التقلب لا يعكس تغيّرا في قيم المجتمع، بل تبدلا في هوية النخب الحاكمة. فالقضية الفلسطينية ليست مسألة جيوسياسية ثابتة في القارة بقدر ما هي علامة أيديولوجية، حيث يرفعها اليسار كراية مقاومة، فيما يقوم اليمين بوضعها جانبا لتفادي الاصطدام مع محاور النفوذ الدولية.

وفي محصلة الأمر؛ فلسطين في أمريكا الجنوبية لا تخسر الشعوب، بل تخسر الحكومات عندما تتبدل. أما الرأي العام، فيبقى – حتى الآن – منحازا لها بعمق، ينتظر فقط من يترجم هذا الانحياز إلى سياسة دولة.

فلسطين كمرآة لهوية أمريكا الجنوبية

يتجاوز الانقسام حول فلسطين في أمريكا الجنوبية حدود السياسة الخارجية التقليدية، ليصبح تعبيرا عن صراع أعمق حول هوية القارة وموقعها داخل النظام الدولي. فالقضية الفلسطينية لم تعد شأنا يخص الشرق الأوسط وحده، بل تحولت إلى رمز تستخدمه القوى السياسية في القارة لتحديد اتجاهها: هل تبقى جزءا من معسكر الجنوب العالمي المناهض للهيمنة، أم تنحاز إلى النظام الليبرالي الغربي بقيادة الولايات المتحدة:

صراع على الهوية السياسية: الموقف من فلسطين بات يعكس الانتماء الفكري لكل تيار. اليسار يعتبرها قضية تحرر وامتدادا لتاريخ القارة في مقاومة الإمبريالية، بينما ينظر إليها اليمين من زاوية التحالفات الأمنية والاقتصادية، وينظر إلى إسرائيل كنموذج للتنمية والقدرة العسكرية.

تراجع المنطقة الوسطى: اختفاء الأحزاب الوسطية خلق مشهدا مستقطبا بحدة؛ يسار أممي يدافع عن فلسطين بوصفها قضية إنسانية وأخلاقية، ويمين يربط مصلحته بإسرائيل باعتبارها شريكا موثوقا في الأمن والاقتصاد. وهكذا فقدت القارة المساحة الرمادية التي كانت تخفف حدة الاستقطاب.

الثقل الأميركي: النفوذ المتزايد لواشنطن داخل الحكومات اليمينية، عبر اتفاقيات أمنية وتجارية، جعل من العلاقة مع إسرائيل معيارا للتماهي مع السياسات الأمريكية. ونتيجة لذلك، أصبح الموقف من فلسطين جزءا من معادلة الولاء السياسي في الإقليم.

تأثير الإعلام والدين: الإعلام اليميني والتيارات الإنجيلية تروج لإسرائيل كـ"حصن للحضارة المسيحي"، فيما يقدم الإعلام اليساري والنقابات وحركات التضامن فلسطين كرمز للمقاومة ضد الرأسمالية العالمية. وهكذا أصبح الخطاب الإعلامي والديني أحد أهم مصادر تشكيل الرأي العام حول القضية.

وبهذا، فإن فلسطين لم تعد ملفا خارجيا عابرا، بل مرآة تكشف الانقسام العميق حول هوية القارة وخياراتها الاستراتيجية.

توصيات: كيف يمكن استعادة الحضور في أمريكا الجنوبية

في ضوء التحولات السياسية المتسارعة التي تشهدها أمريكا الجنوبية، حيث تتأرجح مواقف القارة تجاه القضية الفلسطينية بين مد يساري متضامن وجزرٍ يميني براغماتي، تبدو الحاجة ملحة إلى مراجعة شاملة للنهج الفلسطيني في إدارة العلاقات مع القوى الصاعدة في المنطقة.

فالدعم اللاتيني لم يعد قائما على الأيديولوجيا وحدها كما كان في عقود "التضامن الأممي"، بل بات محكوما اليوم باعتبارات والأمن والاستقرار والتنمية.

من هنا، تبرز مجموعة من التوصيات العملية التي يمكن أن تشكل خريطة طريق جديدة للسياسة الفلسطينية في القارة:

1. إعادة تعريف الخطاب الفلسطيني بما يتقاطع مع مصالح اليمين

تتحرك أحزاب اليمين في أمريكا الجنوبية من منطلق براغماتي، يفضل النتائج الملموسة على الشعارات الأيديولوجية. لذلك، يحتاج الخطاب الفلسطيني إلى إعادة صياغة لتقديم القضية الفلسطينية كقضية استقرار وتنمية، لا كصراع ديني أو سياسي فقط.

كما ينبغي الانتقال من خطاب المظلومية إلى خطاب الشراكة، الذي يمكن اعتباره المدخل الأنجع لبناء جسور تواصل فعالة مع الحكومات اليمينية الجديدة، وأن يعاد تقديم فلسطين في الوعي اليميني بوصفها:

- عامل استقرار إقليمي مؤثر في معادلة الأمن العالمي.

- نموذجا للنضال من أجل العدالة والكرامة الإنسانية، وهي قيم تتقاطع مع ما يروج له اليمين الديمقراطي في القارة.
- شريكا اقتصاديا محتملا في مجالات الزراعة، التقنيات الخضراء، والتعليم.

2. دبلوماسية مصلحية متعددة المسارات

لم يعد اليمين اللاتيني كتلة واحدة يمكن التعامل معها بخطاب موحد؛ فتياراته تتنوع بين الإنجيلية المحافظة في البرازيل، والليبرالية الاقتصادية في الأرجنتين وتشيلي.

هذا التنوع يفرض على الدبلوماسية الفلسطينية تصميم خطط تواصل مخصصة لكل نمط سياسي، من خلال:

- فتح قنوات اتصال مع مراكز الفكر والاقتصاد القريبة من الدوائر اليمينية.
- تعزيز حضور الناطقين الفلسطينيين المتخصصين في الاقتصاد والأمن والتنمية.
- بناء علاقات موازية خارج الإطار الحكومي الرسمي، خصوصا مع رجال الأعمال والإعلاميين المحافظين القادرين على التأثير في الرأي العام.

3. تفعيل القوة الناعمة الفلسطينية

رغم النفوذ الإسرائيلي المتزايد في مجالات التكنولوجيا والإعلام، تمتلك فلسطين رصيدا ثقافيا وإنسانيا عميقا في الوجدان الشعبي اللاتيني يمكن استثماره بفاعلية. ويمكن العمل في هذا الإطار بما يلي:

1. تعزيز التعاون الأكاديمي والثقافي عبر إنشاء مراكز أبحاث وبرامج تبادل جامعي، وترجمة الأدب الفلسطيني إلى الإسبانية والبرتغالية.

2. إبراز البعد المسيحي الفلسطيني، خصوصا في مدينتي القدس وبيت لحم، لتفعيل لغة وجدانية مؤثرة لدى الشارع المسيحي المحافظ.
3. الاستثمار في الإنتاج الإعلامي والفني من خلال أفلام وثائقية قصيرة وبرامج إنسانية تركز على التجربة الفلسطينية اليومية، بعيدا عن الخطاب السياسي التقليدي.

4. توسيع التحالفات عبر المجتمع المدني

حتى مع تغير الحكومات، يظل المجتمع المدني في أمريكا اللاتينية أكثر استقرارا وتأثيرا من المؤسسات السياسية. لذلك، يمكن للفلسطينيين بناء شبكات تضامن طويلة الأمد من خلال:

- دعم منظمات الصداقة الفلسطينية–اللاتينية داخل النقابات والجامعات.
- إنشاء روابط مهنية مشتركة (أطباء، مهندسون، صحفيون) لتبادل الخبرات مع نظرائهم في فلسطين.
- الاستثمار في الجيل الجديد من النشطاء المحافظين ليكونوا جسرا طبيعيا للتواصل مع الحكومات اليمينية.

5. تفكيك العلاقة بين إسرائيل واليمين اللاتيني

ينبع إعجاب اليمين اللاتيني بإسرائيل من صورتها كـ"نموذج للأمن والنجاح الاقتصادي"، لا من عداءٍ للعرب أو الإسلام. من هذا المنطلق، يحتاج الخطاب الفلسطيني إلى تحييد هذا الإعجاب عبر رواية مهنية واقعية توضح أن الاحتلال ليس ضمانا للأمن بل عائق للتنمية والاستقرار الإقليمي.

ويفضل أن يركز التواصل الفلسطيني على:

- الربط بين السلام العادل و"الأمن المستدام"، وهي فكرة مركزية في فكر اليمين العملي.
- استخدام المنصات الإعلامية المحافظة لإيصال صوت فلسطيني هادئ ومقنع بعيدا عن الخطاب الدعائي أو الاتهامي.

6. تنويع الأدوات الدبلوماسية

لتعزيز الحضور الفلسطيني في المشهد اللاتيني، لا بد من تجاوز الدبلوماسية الرسمية إلى أطر تفاعلية أوسع وأكثر مرونة، عبر:

- توسيع الحوار البرلماني مع نواب اليمين المتفهمين لأبعاد القضية الفلسطينية.
- الاستثمار في العلاقات المحلية والمدن الكبرى بدل الاقتصار على الحكومات المركزية.
- إطلاق مشاريع رمزية مشتركة في مجالات الزراعة أو الصحة تحت مسمى "الشراكة الفلسطينية–اللاتينية"، بما يرسخ روابط ميدانية دائمة تتجاوز تغير الإدارات السياسية.

7. تحويل الجاليات الفلسطينية إلى ذراع دبلوماسية موازية

تعد الجاليات الفلسطينية في أمريكا الجنوبية أحد أهم الموارد الاستراتيجية في العمل الدبلوماسي الفلسطيني. فهذه الجاليات تمتلك عناصر قوة متكاملة قلما تتوافر في مناطق أخرى من العالم: نفوذ اقتصادي واسع، وشرعية اجتماعية راسخة بحكم اندماجها التاريخي في مجتمعات القارة، إضافة إلى شبكات علاقات تمتد إلى عالم الأعمال والسياسة والكنائس والبلديات، علاوة على إتقانها الكامل للغات والثقافات المحلية. هذه المقومات تجعل منها لاعبا يمكنه التأثير بفعالية في صياغة مواقف اليمين اللاتيني، الذي غالبا ما يكون أكثر حساسية للخطاب العملي والاقتصادي منه للشعارات السياسية التقليدية.

ومن هنا تأتي التوصية بالعمل على تحويل الجاليات الفلسطينية إلى ذراع دبلوماسية موازية تعمل جنبا إلى جنب مع القنوات الرسمية، ولكن بأسلوب مختلف وأكثر مرونة. فبدل تقديم القضية الفلسطينية كملف نزاع سياسي، يمكن للجاليات إعادة صياغتها داخل أوساط اليمين باعتبارها قضية شراكة اقتصادية، واستقرار إقليمي، وتنمية متبادلة. هذا التحول في زاوية التقديم يفتح بابا جديدا للتأثير على النخب اليمينية التي تميل إلى تقييم القضايا من منظور براغماتي يوازن بين المصلحة والأمن والنفوذ الدولي.

إن تنظيم هذا الدور، مؤسسيا ومهنيا، عبر دائرة شؤون المغتربين والاتحادات الفلسطينية في القارة، في مقدمتها الكونفدرالية الفلسطينية لأمريكا اللاتينية ومنطقة الكاريبي (COPLAC)، سيمكن الجاليات الفلسطينية من لعب دور الوسيط الفعال بين فلسطين وصانعي القرار في أمريكا الجنوبية. فحين يتم تفعيل قوتها الاقتصادية، والاستفادة من حضورها الاجتماعي، وتوجيه شبكات نفوذها نحو أهداف واضحة، يمكن للجاليات أن تصبح قناة ضغط ناعمة تحفظ موقع القضية الفلسطينية في المشهد السياسي اللاتيني، سواء كان اليمين أو اليسار في الحكم. وبذلك تتحول الجاليات من عنصر معنوي داعم إلى أداة استراتيجية قادرة على تثبيت حضور فلسطين وحماية مصالحها في منطقة تتغير مواقف حكوماتها من دورة انتخابية إلى أخرى

الخلاصة

الانقسام اللاتيني حول فلسطين ليس مجرد اختلاف دبلوماسي، بل انعكاس لصراع أعمق حول هوية القارة ودورها في العالم.

فبين يسار يرى في فلسطين امتدادًا لنضال التحرر من الهيمنة، ويمين يعتبر إسرائيل بوابة إلى العالم الغربي، تتجسد في هذا الجدل ملامح معركة فكرية كبرى تعيد رسم موقع أمريكا الجنوبية في النظام الدولي الجديد:

هل تبقى القارة صوت الجنوب المقاوم، أم تتحول إلى شريك تابع لمعسكر الغرب؟

الإجابة على هذا السؤال لن تحدد فقط مسار العلاقات الفلسطينية–اللاتينية، بل ستنعكس أيضا على قدرة القيادة الفلسطينية على إعادة بناء شبكة دعم دولية متنوعة ومرنة.

إن نجاح فلسطين في هذا السياق لا يقوم على موقف أخلاقي أو رمزي فحسب، بل على دبلوماسية استراتيجية ذكية تجمع بين الخطاب الإنساني، الشراكات الاقتصادية، والقوة الناعمة الثقافية، لتظل فلسطين شريكا مؤثرا ومرئيا في قارة تتقلب فيها الرياح السياسية بسرعة.

وبذلك، تصبح فلسطين في الوعي اللاتيني رمزا للمقاومة والعدالة الإنسانية، وفي الوقت نفسه شريكا حقيقيا للأمن والتنمية، قادرة على مواجهة التحديات المستقبلية وتحويل الانقسام القاري إلى فرصة لتعزيز حضورها الدبلوماسي والسياسي والثقافي في أمريكا الجنوبية.